https://jsrhs.rcc.edu.ly/
ISSN: 3078-4611
Vol.3 No.1 (2026), 144- 155
Article history:
Received:22/12/2026
Accepted:19/03/2026
Published:19/03/2026

مجلة البحوث المستدامة في العلوم الإنسانية

JSRHS

الأحوال الثقافية في مصر الفاطمية (358 – 567هـ/ 969 – 1171م)

قسم التاريخ – تاريخ إسلامي، جامعة مصراتة

سليم محمد الشريري

S.elshriri@art.misuratau.edu.ly

https://orcid.org/0009-0006-9367-7548

https://doi.org/10.36602/jshs.2026.1.10

الملخص:

استمرت الخلافة الفاطمية في مصر ما يزيد على قرنين من الزمن (318–567هـ)، قد عُني فيها الفاطميون بالعلم والثقافة الفكرية التي كانت تخدم مذهبهم الشيعي، وذلك من خلال الجامع الأزهر آنذاك، الذي كان قبلة للعلماء، وقد استخدمتُ في هذه الدراسة المنهج التاريخي السردي الخاضع للتحليل، وقد قسمت هذه الدراسة إلى ثلاثة محاور، هي: 1/ مراكز نشر الثقافة العلمية. 2/ أشهر العلماء المؤرخين. 3/ أهم العلوم التي كانت تدرّس عند الفاطميين. وقد توصلت الدراسة إلى عدة نتائج سيأتي ذكرها في خاتمة البحث.

الكلمات المفتاحية:

الفاطميون – الأزهر الشريف – المكتبات – المذهب – الشيعة.

Abstract:

The Fatimid Caliphate in Egypt lasted for more than two centuries (318-567 AH), during which the Fatimids were concerned with science and intellectual culture that served their Shiite doctrine, through the Al-Azhar Mosque at that time, which was a destination for scholars. In this study, I used the narrative-historical approach subject to analysis, and this study was divided into three axes, which are: 1/ Centers for disseminating scientific culture. 2/ The most famous scholars and historians. 3/ The most important sciences that were taught by the Fatimids. The study reached several results that will be mentioned in the conclusion of the research.

Keywords: Fatimids – Al-Azhar Mosque – Libraries – Doctrine – Shiism.

1. المقدمة:

قام الفاطميون الشيعة بتأسيس دولة بعد أن بسطت نفوذها على بلاد المغرب، واتخذت مدينة المهدية بتونس مقرًا لحكمها عقب القضاء على حكم الأغالبة في أفريقية عام (296هـ/909م)، واستمر حكم الفاطميين لبلاد المغرب حوالي تسع وثمانين سنة، فكان الفاطميون يشعرون منذ البداية بأن دولتهم في المغرب لم تكن قوية الدعائم؛ فحاولوا عديد المرات إرسال حملات عسكرية لفتح مصر، وذلك لعدة أسباب طبيعية واقتصادية ودينية واجتماعية، حيث اتجهت أنظارهم إلى بلاد مصر، وبالفعل أصبحت مصر قاعدة ومركزًا للدولة الفاطمية، بعد أن كانت تابعة للخلافة العباسية، فأصبحت خلافة مستقلة استقلالًا تاماً، تقف على قدم المساواة مع أية خلافة أخرى، وأدى هذا الوضع الجديد إلى تغير كثير من الأمور الاقتصادية والاجتماعية والثقافية أثرت في استمالة المجتمع المصري آنذاك.

ومما سبق ذكره رأيت أن يكون عنوان بحثي (الأحوال الثقافية في مصر الفاطمية)؛ حيث اهتم الخلفاء الفاطميون بالنهضة الثقافية، فكان كثير منهم على جانب كبير من العلم والثقافة، فاهتموا بالمؤسسات العلمية والفكرية، فانتشرت دور الثقافة والمكتبات، وظهرت طبقة من

العلماء والمؤرخين، والعديد من العلوم، فأصبحت بذلك مدينة القاهرة كعبة العلماء والأدباء والفقهاء، وكان الأزهر منارة للعلم والثقافة آنذاك وإلى الوقت الحاضر.

2. إشكالية الدراسة:

لاستقرار الفاطميين في هذه البلاد وظفوا كونهم أسرة شيعية، فعملوا على تمويه الشعب المصري، أو استمالته طوعًا وكرهًا؛ لذلك يمكن طرح العديد من التساؤلات الآتية:

1. ما سبب مجيء الفاطميين إلى بلاد مصر؟
2. ما دورهم الحضاري في هذه البلاد؟
3. ما وضع بلاد مصر الاقتصادي آنذاك؟
4. ما مدى تقبل المصريين للحركة العلمية والثقافية؟
5. ما مدى اهتمام الفاطميين بالجانب العلمي والثقافي؟

3. أهمية الموضوع:

تكمن أهمية الموضوع في أنه يشكل دراسة جانب مهم أصيل في التاريخ الفاطمي في مصر، وذلك لاستقلال البلاد، وإقامة خلافة مستقلة نتج عنها عدة مظاهر، كان لها دورٌ في تطور وتغير سير الدولة آنذاك، من أهمها الجوانب الثقافية.

4. أسباب اختيار الموضوع:

1. تسليط الضوء على هذه الفترة التاريخية والمهمة في تاريخ مصر.
2. رغبة الباحث في الكتابة في مثل هذه المواضيع.
3. تميز هذا العصر عن غيره من عصور مصر الإسلامية بأن قامت فيه خلافة تزيد على القرنين ونيف.

5. حدود الدراسة:

حُددت الدراسة مكانيًّا في العصر الفاطمي، وزمانيًّا من نهاية الدولة الإخشيدية ودخول الفاطميين سنة (357هـ إلى 567هـ) حتى القضاء عليها من جانب الأيوبيين.

6. المنهج المتبع في الدراسة:

اتبعتُ في هذه الدراسة المنهج التاريخي السردي، المتضمن تحليلًا لبيان معرفة المقاصد، والوقوف على العلة والسبب في ازدهار الثقافة في المرحلة الفاطمية في إطارها الزمني والمكاني المحدد لها.

7. مدخل للموضوع:

لم يسيطر الفاطميون سيطرة كاملة على بلاد المغرب؛ لدخول زعيم الأدارسة محمد بن خرز الزياتي في مدينة فاس، في طاعة عبد الرحمن الأموي في الأندلس (300–350هـ/912–961م) (المقريزي، 2009)، وازدادت الاضطرابات في وجه الفاطميين في تلك البلاد، عندها التف حول أبي يزيد بن مخلد سنة (323هـ/944م) عدد كبير من أتباعه، فهدد المهدية– مركز الخلافة الفاطمية في تونس– بالاحتلال لولا مساعدة الكتاميين وزيري بن مناد زعيم قبيلة صنهاجة الذين قضوا على انقلابه (حسن، 1932).

وقد واجهت الفاطميين مصاعب أخرى في تثبيت دولتهم في المغرب، منها:

عداء الأمويين لهم، والعمل على مساعدة الثائرين على الفاطميين، وحماية الأمويين للثوار عند اللجوء إلى الأندلس عندما اضطرتهم الحرب إلى ذلك، كما كان الأمويون على استعداد لغزو طنجة وسبتة، والاستيلاء عليهما، ورد الفاطميّين إذا ما فكروا في غزو الأندلس (حسن، 1932).

ومنذ قيام الخلافة الفاطمية ببلاد المغرب، اتجهت أنظار أئمتها إلى مصر التي تتمتع بموقع مميز في العالم الإسلامي، فالسيطرة على مصر تعني السيطرة على القطرين التابعين لها، وهما: الشام، والحجاز، وضم شعوبهما تحت المملكة الشيعية، كما تيسر لهم السبيل إلى الزحف على العراق، وإسقاط الخلافة العباسية، والأخذ بثأرهم من العباسيين الذين نكَّلوا بالعلويين.

ومن ناحية أخرى أيقن الفاطميون أن بلاد المغرب لا تصلح لإقامة خلافة دائمة يتحقق معها أمنهم في السيادة والسيطرة على كافة أرجاء العالم الإسلامي؛ لأن أهلها من البربر سريعو الغضب، حادُّو الطباع، كثيرو الثورات، الأمر الذي يهدد الاستقرار، ويعرقل خطط التنمية وتوطيد أركان الدولة، ولم تكن أحوال مصر السياسية والاقتصادية خافية على الفاطميين في بلاد المغرب (عرفة، 2003).

ففي الوقت الذي كانت فيه خلافة الفاطميين في المغرب، كانت مصر قد أعيدت إلى حظيرة الخلافة العباسية بعد انتهاء الحكم الطولوني سنة (292هـ/904م)، وكان واليها في ذلك الوقت أبو منصور تكين، إلا أن القائد مؤنسًا الخادم عزله، وتولى تصريف شؤون البلاد حتى تولى ذكا الرومي، فلما توفي سنة (307هـ/919م)، عاد تكين واليًا للمرة الثانية، إلا أن مؤنسًا عزله مرة أخرى، وعُيِّن الوالي هلال بن بدر، الذي ازدادت الأحوال في عهده سوءًا، فثار عليه الجند، واضطربت أحوال الناس، وعم الفساد والسلب والنهب في البلاد (ابن خلكان، 1972).

وأما الخلافة العباسية فقد أصابها الوهن والضعف، ولم تستطيع السيطرة على ولاياتها، وانتهت حاضرة الخلافة العباسية بمأساة دموية، وهي مقتل الخليفة المقتدر سنة (320هـ/932م).

كذلك رأى عبيد الله المهدي أن تكون في مصر قاعدة يوجه منها حملاته للقضاء على الخلافة العباسية المتداعية للانهيار، فقام بتسيير ثلاث حملات باءت جميعها بالفشل، وفي خضم هذه الظروف التي كانت في صالح الفاطميين– إذ توفي كافور الإخشيدي– اضطربت الأمور، وأصاب مصر الغلاء الشديد؛ بسبب القحط، وشح مياه النيل، وانتشار الأمراض، مما أضعف المصريين، هذا إلى جانب وجود جماعة تدين بالمذهب الشيعي، فلما بلغ ذلك الخليفة الفاطمي المعز لدين الله، بعث مولاه جوهر الصقلي ومعه مائة ألف مقاتل، فدخلوا بلاد مصر نهار الثلاثاء، السابع عشر من شعبان سنة (358هـ)، بعد أن فرَّ من نجا بنفسه حاملًا معه ما تيسر له حمله (المقريزي، 1967).

ثم انتقل الخليفة المعز لدين الله من مركزه في المنصورية، نهار الاثنين، الحادي والعشرين من شوال سنة (361هـ/972م)، بعدما استخلف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي على أفريقيا [ابن الأثير، 1997)، ومعه حاشيته، وجنوده، وخزانته، وفيها الأموال الكثيرة، ناقلًا أيضًا جثث أهله في توابيت خشب؛ لدفنها بالقرافة الكبرى (عطية، 1948).

وصل الخليفة المعز لدين الله إلى الإسكندرية يوم السبت، الثالث والعشرين من شعبان سنة (362هـ/973م)، وخطب في منارة الإسكندرية، فحرك فيهم الشعور الديني، حتى بكى بعض الحاضرين، ثم تابع المعز سيره، واستقبله القائد جوهر الصقلي في الجيزة، وترجل له عند لقائه، وقبل الأرض بين يديه (ابن خلكان، 1972).

ودخل المعز لدين الله القاهرة نهار الثلاثاء، الخامس من رمضان في السنة نفسها، وفي القصر خرّ ساجدًا لله– تعالى–، ثم صلى ركعتين، وبذلك غدت القاهرة مركز الخلافة الفاطمية، بدل المنصورة في المغرب التي بناها والده المنصور بنصر الله، وتحولت البلاد المصرية من

مركز إمارة إلى مركز خلافة، وباشر الخليفة المعز لدين الله– أول الخلفاء الفاطميين ببلاد مصر– سلطانه كاملًا بعزل قائده جوهر الصقلي عن دواوينها وخبايا أموالها والنظر في سائر أمورها، وقد دخل الخليفة المعز لدين الله وجلس في القصر الذي بناه جوهر له عند بناء القاهرة (ابن خلكان، 1972).

8. مراكز نشر الثقافة العلمية:

تعددت المراكز العلمية والثقافية في مصر إبَّان الحكم الفاطمي، وهو ما يؤكد أن الفاطميين كانوا حريصين على نشر العلوم والمعارف إلى جانب نشر المذهب الشيعي، ومن هذه المراكز:

1.8 المساجد:

تعد المساجد من أهم المراكز الثقافية، ليس في مصر فحسب؛ بل في الأمصار الإسلامية جميعًا، وكان المسلمون يحرصون على بناء المساجد عند إنشائهم المدن في الأمصار المفتوحة؛ لتقوم بوظائف متعددة، وكان من أبرز وظائفها: قيامها بدور المدرسة والجامعة في العصور الحديثة، فقد عرف التدريس في المساجد منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام (فكري، 1969).

وشهد جامع عمرو بن العاص– منذ نشأته– حياة علمية مزدهرة، فألقيت فيه دروس الوعظ بعد الصلاة، منذ سنة (38هـ وحتى سنة 658هـ) (المقريزي، 2009).

كما شهد جامع عمرو بن العاص إعلان مولد الدولة الفاطمية في مصر، فقد أقيمت فيه صلاة الجمعة في التاسع عشر من شهر شعبان سنة (358هـ)، بعد استيلاء جوهر الصقلي على الفسطاط بأيام قليلة، حيث دعا للمعز لدين الله لأول مرة على منابر مصر بعد خطبة الفقيه هبة الله بن أحمد (ابن خلكان، 1972).

وقد حظي جامع عمرو بن العاص باهتمام الخلفاء الفاطميين؛ ليقوم بدوره الديني، بوصفه مركزًا من مراكز الثقافة، وقد أمدنا الرحالة– الذين زاروا مصر في عصر الخلافة الفاطمية– بوصف دقيق للحياة العلمية في جامع عمرو بن العاص، فقد وصف المقدسي– الذي زار مصر في عهد الخليفة العزيز– الحركة العلمية الدينية بقوله: "ليس في الإسلام أكبر مجالس من جامعه... وسائر المذاهب بالفسطاط موجودة ظاهرة...، والفتيا اليوم على المذهب الفاطمي...، والقراءات السبع فيه مستعملة غير أن قراءة ابن عامر أقلها.

كما كان هناك العديد من الروايات التي تؤكد على المكانة العلمية للمسجد الجامع الفسطاط، التي لم تتأثر بوجود جامع ابن طولون، والجامع الأزهر، وعلى الرغم من وجود الدراسات السنية بجامع عمرو، فإن الدولة الفاطمية حرصت على نشر مذهبها، وتدريس التعاليم الإسماعيلية في جامع عمرو (المقريزي، 2009).

1.1.8 الجامع الأزهر:

شرع جوهر الصقلي في وضع أساس الجامع الأزهر، أو جامع القاهرة في الرابع والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة (359هـ)، وتمَّ بناؤه في عامين وثلاثة أشهر، فكان أول مسجد أقيم في القاهرة؛ ليكون الجامع الرسمي للدولة، ومركز نشر الدعوة الإسماعيلية، ورمزًا لانتصارهم على الدولة العباسية. لقد عقد بنو النعمان في الجامع الأزهر أولى الحلقات العلمية من كتاب الأقصار– وهو من آل البيت– في فقه الشيعة، وجعلت هذه الحلقات التي عقدها بنو النعمان المغاربة في الجامع الأزهر تشبه في وقت مبكر حركة فكرية وثقافية، تتمثل في الاتجاه العلمي، ونشر الدعوة الإسلامية من خلال مساحات هذا الجامع، وكان الفضل في هذه البداية النشطة يرجع إلى الوزير يعقوب بن كلس، الذي كان يشغل وقتذاك وزيرًا للخليفة العزيز بالله، قرأ على الناس كتابًا ألفه في الفقه الشيعي على مذهب الإسماعيلية (حسن، 1963).

فقد كانت حلقات ابن كلس في الجامع الأزهر أول مجالس جامعية حقيقية عقدت في هذا الجامع، وتمتاز عن مجالس بني النعمان بتحررها من الصبغة المذهبية للدعوة الإسماعيلية، واتجاهها نحو الغايات قبل اتجاهها نحو المثل المذهبية (عنان، 1958).

وفي عهد الخليفة العزيز خطا الأزهر خطوة أخرى نحو الأخذ بالنظام التعليمي، فقد استأذن ابن كلس الخليفة في أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء؛ للقراءة والدرس، يحضرون مجلسه، ويلازمونه، ويأخذون عنه الفقه الشيعي؛ ليعلموه للناس (القلقشندي، 1919).

وهكذا بدأت الدراسة بالجامع الأزهر تزدهر، ووفد طلاب العلم من كل مكان، ودرَّس فيه علماء أكابر، فأصبح من أهم مراكز الثقافة، وغلبت الصبغة المذهبية على الدراسة بالأزهر، ولاسيما في بداية عهده، حيث كانت غاية الدولة الفاطمية توطيد إمامتها، فكانت علوم الشيعة وفقه آل البيت تحتل المقام الأول في حلقاته الدينية (المقريزي، 2009).

وقد تعهد الخلفاء الفاطميون بالتجديد، وحظي الأزهر الشريف بكثير من رعايتهم وعنايتهم، وخصصوا الأموال للإنفاق عليه، فظهر نظام الأروقة بالجامع الأزهر، ويرجع هذا النظام إلى عصوره الأولى، غير أن هذه الأروقة لم تستخدم مساكن للطلبة في بداية الأمر، وإنما كانت سكنًا للفقهاء، عندما أخذ الخليفة العزيز بالله (365–386هـ/975–996م) باقتراح وزيره يعقوب بن كلس، الذي عرض عليه تنظيم دراسة علمية في الأزهر، تضم سبعة وثلاثين فقيهًا، وتجري عليهم الدولة المرتبات، وتعد دارًا لسكناهم، ونفذ العزيز بالله هذا الاقتراح، وأمر ببناء دارٍ بجوار الجامع الأزهر يقيمون فيها (المقريزي، 2009).

وقد بني في العصر الفاطمي العديد من المساجد التي عدت بمثابة مراكز للثقافة والعلوم، ومن هذه المساجد: جامع القرافة، وهو جامع الحاكم بأمر الله، وبعد فترة من الوقت أطلق عليه جامع الخطبة، وقد كانت هذه المساجد بمثابة مراكز إشعاع علمي وديني لتلقي مختلف العلوم والمعارف، مع ما يُقَّدم فيها من خطب ومواعظ وأذكار للناس عامة.

2.8 المدرسة الحافظية:

بنيت المدرسة الحافظية في الإسكندرية، وهي أول مدرسة لتدريس المذهب المالكي سنة (532هـ/1138م)، بنيت على يد الوزير رضوان بن ولخشي (القلقشندي، 1919)، وقرر في تدريسها الفقيه أبا الطاهر بن عوف، فعُرفت بالعوفية في بعض المصادر، وكذلك إسماعيل بن مكي بن إسماعيل بن عيسى، واستصدر من الخليفة الحافظ لدين الله سجلًا خاصًا ببناء المدرسة، فنسبت فيه المدرسة إلى الخليفة، وسميت بالحافظية (ابن تغري، 1992).

3.8 المكتبات:

اشتهر الخلفاء الفاطميون بميلهم الشديد إلى العلم والعلماء، وكانت قصور الخلفاء ودور الوزراء وكبار رجال الدولة من المراكز الثقافية المهمة في العصر الفاطمي، فكانوا يعقدون المجالس بالقصور، ويحضرها أهل الفقه والأدب والشعر والطب (ابن تغري، 1992).

وقد ساعد على ازدهار هذه المجالس شغف المصريين بالعلم، وإقبال الأدباء والشعراء على المناظرة؛ طمعًا في الهبات والعطايا التي كان يغدقها الخلفاء عليهم (القلقشندي، 1919)، ومما ساعد على ازدهار هذه المجالس أيضًا أن الخلفاء الفاطميين أنفسَهم كانوا من طلبة العلم والمشجعين له، فكان الخليفة المعز على درجة عالية من الثقافة، فقد كان يتكلم اللغات المعروفة في عصره: البربرية، والروسية، والسودانية، والصقلية (المقريزي، 1967).

وكانت مكتبة المعز في المنصورية، ثم في القاهرة، زاخرة بالكتب، وقد كان ابنه العزيز أديبًا فاضلًا، وأما الخليفة الحاكم بأمر الله فقد عُرف ببراعته وشغفه بعلم النجوم والكيمياء والرياضيات، وكان ملمًا بالأدب، ويشجع الأدباء، وقد كانت قصور الخلفاء الفاطميين مراكز للثقافة، حيث دعي إليها العلماء والأدباء؛ ليشاركوا في نهضتها العلمية والأدبية، فكان ينعقد في القصر الفاطمي– إلى جانب مجالس الأدب والشعر

والمناظرة– مجالس الدعوة، التي كانت بمثابة مدرسة عامرة بفقهاء الدعوة الفاطمية وطلابهم، وقد ازداد الإقبال على هذه المدارس من الناس على مختلف طبقاتهم، وقد تصدر الدرس فيها علماء المغاربة الشيعين من آل النعمان.

ولم تقتصر مجالس الثقافة على قصور الخلفاء؛ بل تعدتها إلى دور الوزراء وكبار موظفي الدولة، التي كانت تتزين بالعلماء وأهل الأدب، من أمثال الوزير يعقوب بن كلس، الذي كان يعقد المجالس العلمية، كما خصص في داره مكانًا للذين يقومون بنسخ القرآن الكريم والكتب الأدبية والعلمية، واستطاع ابن كلس أن يتعمق في علوم الشريعة وفي المذهب الإسماعيلي (ابن خلكان، 1972).

كما ذاع صيت الطبيب محمد بن أحمد بن سعيد التميمي المعروف بالمقديسي، حيث كانت له براعة في الطب، وتركيب الأدوية، وقد قام هذا الطبيب بتدريس علوم الطب في مصر، والتقى بالأطباء المصريين والمغاربة، وكان من نتائج الحركة العلمية النشطة في القصور الفاطمية انتشار المكتبات الضخمة التي أبهرت المؤرخين بكثرة ما تحويه من نوادر الكتب في ذلك العصر (المقريزي، 2009).

فقد عُني الفاطميون بجمع أكبر عدد من الكتب، والحصول على أقدم المؤلفات في جميع العلوم، واقتناء العديد من النسخ للكتاب الواحد، ومن هنا يتبين لنا عناية الفاطميين باقتناء الكتب، وحرصهم على أن تجمع في خزائنهم؛ وذلك تشجيعًا منهم للعلم والعلماء؛ لأن مذهبهم يدعو إلى العلم والعمل (المقريزي، 2009).

ومع وجود مكتبة القصر؛ فقد كان كل وزير في الدولة الفاطمية يحتفظ بمكتبة ضخمة في قصره، تحوي الآلاف من الكتب القديمة، وكانت مكتبة القاهرة أعظم دار كتب في البلاد في آنذاك، ومن عجائبها أنه كان فيها ألف ومئتا نسخة من تاريخ الطبري، وهنا يمكن القول: إن خزائن الكتب في المساجد وقصور الخلفاء والوزراء أدَّت دورًا كبيرًا في الحياة الثقافية والفكرية في العصر الفاطمي، ومن آثارها ظهور طائفة كبيرة من المؤرخين والأدباء والعلماء والفلاسفة والأطباء، كما أدت هذه المكتبات دورًا جليلًا لطلبة العلم الذين يمموا وجوههم صوب مراكز الثقافة في مصر (حسن، 1937).

1.3.8 دار الحكمة:

أسسها الحاكم بأمر الله سنة (395هـ/1005م)، وأطلق عليها هذه التسمية؛ لتكون رمزًا للدعوة الشيعية؛ لأن مجالس الدعوة كانت تسمى مجالس الحكمة، وقد حوت مكتبة دار الحكمة كتبًا كثيرة في سائر العلوم والآداب، من فقه، ونحو، ولغة، وكيمياء، وطب، وسُمح لعامة الناس بارتيادها (سرور، 1991)، ويذكر المقريزي في الخطط أنه "حصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب ما لم يُرَ مثله مجتمعًا لأحد قط من الملوك، وأباح ذلك لسائر الناس على طبقاتهم، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للعلم، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر، والأقلام، والورق، والمحابر" (المقريزي، 1967، ص158).

وقد ضمت دار الحكمة كثيرًا من الأساتذة في مجالات مختلفة، مثل: الحساب، والمنطق، والطب، والفلك، والتنجيم، منهم: ابن يونس المنجم، وأبو على الحسين بن الهيثم، وعلي بن رضوان، كما أن طلاب دار الحكمة كانوا يتلقون علوم آل البيت، وفقه الشيعة، إلى جانب العلوم المذكورة آنفًا، وبذلك اختلفت مناهج التعليم فيها عن مناهج التعليم بالمساجد الفاطمية؛ إذ كانت تغلب عليها الصبغة العلمية، في حين كانت مناهج المساجد تغلب عليها الصبغة الدينية (سرور، 1991).

وهكذا فقد استطاعت دار الحكمة– بفضل أساتذتها ومناهجها– أن تجذب كثيرًا من أعلام الشرق، أمثال الرحالة الفارسي: ناصر خسرو، والداعي الحسن بن الصباح اللذيْن وفدا إلى مصر زمن المستنصر بالله الفاطمي (المقريزي، 1967).

2.3.8 خزانة الكتب الفاطمية:

تعد هذه الخزانة من المؤسسات الثقافية الفاطمية، حيث يذكر أنها: "من عجائب الدنيا، ويقال: إنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التي كانت بالقاهرة في القصر...، ويقال: إنها كانت تشتمل على ألف وستمائة ألف كتاب، وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة، وإن من عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري" (الصفدي، 1988، ص688).

ويذكر بعضهم وصفًا مثيرًا للإعجاب عن تنظيم الخزانة في العصر الفاطمي، بأنها "تحتوي هذه الخزانة على عدة رفوف، والرفوف مقطعة بالحواجز، وعلى كل حاجز باب متقن بمفصلات وقفل، وفيها أصناف من الكتب، ما يزيد على مائتي ألف كتاب من المجلدات، ويسير من المجردات، فمنها في الفقه على سائر المذاهب، والنحو، واللغة، وكتب الحديث، والتواريخ، والملوك، والنجامة، والروحانيات، والكيمياء، من كل صنف النسخة والعشرة (القلقشندي، 1919).

وكان الخلفاء الفاطميون يُكثرون من زيارة خزانة الكتب، خاصة خلال القرن السادس الهجري، فكان الخليفة يجيء إليها راكبًا، ثم يترجل، ويتخذ مجلسه فوق دكة منصوبة، ويمثل بين يديه أمين الخزانة، ويأتيه بمصاحف مكتوبة بأقلام مشاهير الخطاطين، وغير ذلك من الكتب، فيختار ما يشاء للمطالعة (المقريزي، 1967).

وقد تعرضت خزانة كتب القصر الفاطمي، وخزانة كتب دار العلم لأزمات كثيرة، أضاعت كثيرًا من ذخائرها، إلى أن قُضي عليها تمامًا في أعقاب سقوط الدولة الفاطمية، حيث استولى الجنود والأمراء على نفائس ما كان في خزانة الكتب، وخزانة دار العلم (المقريزي، 1967).

9. أشهر العلماء والمؤرخين وازدهار حركة التأليف:

قامت الخلافة الفاطمية لتنافس الخلافة العباسية، وتحاول أن تقضي عليها، وكان بين الخلافتين صراع عنيف، استعمل فيه كل سلاح ممكن، ومن الأسلحة التي استعان بها الفاطميون، وبرعوا فيها: سلاح العلم والأدب والثقافة؛ إذ إن مذهبهم الشيعي– الذي يخالف مذهب جمهور السنة– في حاجة إلى الدعوة، وكسب المؤيدين في أنحاء العالم الإسلامي من جهة، والوقوف في وجه علماء السنة في مصر والعراق وغيرهما– الذين قاموا بمحاولة لتنقية آراء الفاطميين– من جهة أخرى، فكانت معركة سلاحها الحجة والاقتناع، وغذائها العلم (المناوي، 1970).

وقد ساعدهم على تنفيذ غايتهم حبهم للعلم والأدب، وكذلك الأموال، فأصبحت القاهرة في عهدهم مركز العلوم والفنون، ومركز إشعاع، جذب إليه كثيرًا من العلماء والشعراء، وأهل الفنون المختلفة.

ولم يقتصر تشجيع الحياة العملية والأدبية على الخلفاء؛ بل إن لكبار رجال الدولة– وكان من بينهم الوزراء– أثر كبير في ازدهار الحياة الفكرية والنهضة العلمية والثقافية، حيث أصبحت مصر في ذلك الوقت مسرحًا للنشاط العلمي والعملي، وكان للوزراء دورٌ كبيرٌ في التأليف في مختلف أنواع العلم والشعر، وكان أحد عوامل نشاط حركة التأليف: الاختلاف المذهبي بين الشيعة والسُنَّة، حيث كانت تعقد مجالس أدبية للجدل والنقاش، وظهور العديد من الكتب تدعو للشيعة وترد على اتهامات السنيين.

وكان من أبرز رجال القضاء والأدب: أبو الحنيفة النعمان، القاضي المغربي، الذي كان له أثر كبير في النهضة الأدبية لدعوة الفاطميين في مصر، وكان لدى القاضي النعمان أقوم مصادر لدراسة القانون عند الفاطميين، ويُعرف في تاريخ أدب الدعوة الإسماعيلية المتعلية بين قاضي القضاة وداعي الدعاة، حيث ميز بأنه صاحب المذهب الحنفي، إذ كان مالكي المذهب، ثم اعتنق مذهب الفاطميين.

وقد خدم القاضي النعمان المهدي مؤسس الدولة الفاطمية تسع السنوات الأخيرة من حكمه، وفي عهد المنصور عُيِّن قاضي المنصورية، ووصل إلى أعلى المراتب في عهد المعز لدين الله، وهكذا فقد عاصر أبو الحنيفة الفاطميين في المغرب، ثم قدم إلى مصر هو وأبناؤه،

ويُعد النعمان من أهم دعائم الدعوة الإسماعيلية، وله في الفقه الإسماعيلي عدة مؤلفات، منها: دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام، وقد استغل ميوله المذهبية في تأليف الكتاب (سرور، 1991)، كما أضاف إلى قواعد الإسلام الخمس: الولاية وحب أهل البيت والطهارة، وكان القاضي النعمان رجلًا ذا مواهب عديدة، غزير العلم، واسع المعرفة، وعادلًا في حكمه، ولا يؤلف شيئًا دون الرجوع إلى أئمة عصره، حيث كان النعمان من أغزر مؤلفي الإسماعيلية إنتاجًا (القاضي النعمان، 1969).

واشتهر الخليفة المنصور والد المعز بسعة الاطلاع، ولم تشغله مهام الخلافة وأعباء الحكم عن البحث والتأليف؛ بل إنه كثيرًا ما كان يحتم على ابنه المعز أن يؤلف الكتب، ويقرض الشعر، وكان حريصًا على حث العلماء إلى القراءة والكتابة والبحث في علوم القرآن الكريم، وكتابة الكتب، حيث قال لقاضيه أبا النعمان: استخرج من كتاب الله ما رفضته العامة وأنكرته (المقريزي، 2009).

وكانت للبيئة العلمية التي نشأ وترعرع فيها المعز أثرٌ في تنمية مداركه، حيث كان الخليفة المعز يدعو العلماء إلى تأليف الكتب عن عقائد المذهب الفاطمي، وطلب من النعمان الاطلاع على العلوم الخاصة لآل البيت، والتأكد من صحة النصوص التي تنقل عنهم، وكان المعز يراجع بعناية جميع المؤلفات التي تُقدَّم إليه، وكان من مؤلفات المعز لدين الله (تأويل الشريعة– كتاب الروضة– بيان في العلم ومجالسه الرحلة إلى حسن القرمطي– المناجاة الرحلة في شأن المحبة)، فكان المعز يعمل على تشجيع العلماء، وتقريبهم وبذّر المال عليهم، كما ساهم المعز مساهمة فعالة في ترويج مبادئ الشيعة، وترغيب الناس في الأئمة العلويين، كما نراه يعمل في الوقت نفسه على نشر العلوم، حتى كان النعمان هو أكثر رجال عهده اطلاعًا، يقف من المعز موقف التلميذ من الأستاذ (ابن خلكان، 1972).

ولقد فتح المعز أبواب قصره للعلماء والطلاب ومشايخ أفريقية، وأباح لهم جميعًا الاطلاع على الكتب المختلفة، ودراستها، واستنساخها، والتعلم منها، والتفقه فيها، ويمكن القول: إن المعز يعد من أفذاذ عصره في العلم والتصنيف، فهو الذي دعا إلى الحركة العلمية المباركة (حسن، 1963).

ولا شك أن أثر ابن كلس على الحركة الفكرية كان قويًّا، حيث ظلت مزدهرة إلى النصف الأول من القرن الخامس الهجري، وهذا نتيجة لولعه بالتأليف، وجمع الكتب، حتى صارت لديه مكتبة عظيمة، أما داعي الدعاة الحاكم بأمر الله حميد الدين الكرماني فهو من فلاسفة الإسماعلية، ولقب بحجة العرافين، وبرزت له مؤلفات، بعضها كتب طوال، وبعضها رسائل قصيرة، مزج فيها تعاليم الإسماعيلية وعلوم الشرع والمعارف الفلسفية الأخرى، ومن أهم مؤلفاته: كتاب المصابيح، إثبات الإمامة، الرحلة المضيئة، كتاب الرياض، كتاب الأقوال المذهبية، ثلاثة عشر رسالة (الأعظمي، 1993).

وكان حميد الدين الكرماني شخصية لها أيادٍ عظيمة على حركة التأليف في العصر الفاطمي في مصر، وقد ألف في الرد على ما ادعاه الدرزية في تأليفه (الحاكم) رسالة سميت: "الرسالة الواعظة في نفي دعوى ألوهية الحاكم بأمر الله"، يثبت فيها عقيدة الإسماعيلية في وحدانية الله– سبحانه وتعالى–، وكذلك له رسائل في أدب الإسماعيلية، وكتاب المجالس البغدادية والمجالس البصرية، حيث جمع فيهما محاضراته في تأويل الآيات المتشابهة (حسن، 1963).

وهناك شخصيات أخرى مرموقة في العصر الفاطمي، من بينها داعي الدعاة: المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي، وقد أسهمت مؤلفاته في تلك الفترة إسهامًا كبيرًا في إثراء العلوم الأدبية في تلك الفترة، من هذه المؤلفات: المجالس المؤيدية، السيرة المؤيدية، ديوان المؤيد الابتداء والانتهاء، وغيرها.

وقد كان ديوان المؤيد يصور عقائد الفاطميين تصويرًا كاملًا، كما عرض المؤيد لمبدأ التأويل، وإعجاز القرآن، والرأي، والقياس، وتعتبر مؤلفاته– وخاصة المجالس المؤيدية– عرضًا لأصول عقائد الإسماعيلية، ورفعًا من شأن الإمام، وهو المستنصر بالله، ويشمل هذا الكتاب خمسة وثلاثين مجلسًا (حسن، 1932).

وقد شجع الفاطميون حركة التأليف حتى بات لها أثر في ظهور طائفة كبيرة من المؤرخين الذين أسهموا فيها في العصر الفاطمي، منهم: أبو الحسن علي بن محمد الشابشتي، اتصل بخدمة مولاه العزيز، فولاه خزانة الكتب، كما نبغ من المؤرخين في هذا العصر: الأمير المختار، وعز الملك، المعروف بالمشبحي، وكان من جلساء الخليفة الحاكم بأمر الله، وشغف بكتابة التاريخ، وألف فيه عدة كتب، منها: تاريخه الكبير، المسمى: (تاريخ مصر)، وكذلك من أعلام المؤرخين الذين كان لهم فضل في حركة التأليف: أبو عبد الله القضاعي، الذي وُلد بمصر في أواخر القرن الرابع الهجري، حيث كان من أقطاب الحديث والفقه الشافعي (حسن، 1932).

كذلك ظهر من الكُتَّاب والمؤرخين في أواخر العصر الفاطمي: أبو القاسم على بن نجيب الصيرفي، وقد اشتهر ذكره، وعلا شأنه في البلاغة والشعر، وبرع كذلك في الخط (المقريزي، 2009)، ونبغ أيضًا بعض العلماء من أمثال: أبي علي محمد بن الحسن بن الهيثم، وأصله من البصرة، ثم أتى إلى مصر بدعوة من الحاكم بأمر الله، لما بلغه أن له نظرية مهمة في توزيع مياه النيل، وكان ابن الهيثم مصدر حركة فلسفية كبيرة، وخاصة في الطبيعة، والرياضيات، وكذلك اشتهر من الأطباء والفلاسفة: أبو الحسن علي بن رضوان، وهو مصري المولد، وأصبح بفضل جهده واجتهاده رئيس الأطباء في البلاط الفاطمي (حسين، 1950).

10. أهم العلوم التي تدرس عند الفاطميين:

في الحقبة الأولى من العصر الفاطمي (358–465هـ/969–1073م) صُبغت الحركة العلمية بالصبغة الإسماعيلية، وانتشر الفكر الإسماعيلي في المجتمع، وتم توظيف القصر والجوامع والمكتبات لنشر الدعوة الفاطمية والمذهب الإسماعيلي (الصاوي، 1932).

وأسس خلفاء العصر الأول العديد من الجوامع، مثل: الجامع الأزهر، وجامع راشد، وجامع الحاكم، حيث أنشأ الخليفة الحاكم بأمر الله مكتبة دار العلم (395هـ/1005م)، وألحقها بدار الحكمة، وكانت تدرس فيها العقائد، وفن المذهب الإسماعيلي (صنمة، 1932).

وخلال ما يزيد عن قرن من الزمان (358–465هـ/969–1073م) كان هناك أربعة أنواع رئيسية للعلم والتعليم في مصر، بلغت فيها الدولة الفاطمية عنفوان قوتها، ومنتهى توسعها، وهي:

1.10 علوم المذهب الإسماعيلي:

وهو المذهب الرسمي للخلفاء الفاطميين، نسبة إلى جدهم إسماعيل بن جعفر الصادق (ت: 133هـ/751م)، الذي ثبّت الفاطميون إمامته بعد وفاته في حياة والده الإمام جعفر (148هـ/765م)، خلاف الشيعة الاثني عشرية الذين جعلوا الإمامة لأخيه موسى بن جعفر، ثم أبنائه من بعده (الشهرستاني، 1989)، وظهر في عهد الخليفة العزيز بالله (365–386هـ/976–996م) أحد كبار علماء المذهب وفقهائه، وهو الوزير أبو الفرج يعقوب بن كلس (380هـ/990م)، الذي اشتهر بحبه للعلم، وإخلاصه للمذهب، وصرفه الأرزاق على المثقفين بالجامع الأزهر، (سليم، 1970)، كذلك ظهر عدد من كبار الفلاسفة الإسماعيليين؛ لأن العقيدة الإسماعيلية تعتمد على التأويل والأدلة العقلية، وقراءة كتب الفلاسفة اليونان (حسين كامل)، ومن كبار هؤلاء الفلاسفة: الداعي حميد الدين التركماني (ت:411هـ/1020م)، والمؤيد في الدين هبة الله بن موسى الشيرازي (ت:470هـ/1078).

2.10 العلوم العقلية:

ازدهرت علوم الفلك والمنطق والطب والصيدلة بمصر في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري؛ لأن المذهب الإسماعيلي يتماشى مع دراسة هذه العلوم المعتمدة على كتب الفلاسفة اليونانية، ولإغداق الخلفاء الفاطميين الأوائل الأموال والهبات على أصحاب تلك العلوم (حسين، 1950)، فقد وفد إلى مصر عدد من كبار الأطباء والحكماء، منهم: الطبيب محمد بن أحمد التميمي المقدسي (ت:370هـ/981م) الذي اشتهر بعلم الصيدلة، والطبيب أحمد ابن محمد بن البلوي (ت:380هـ/991م)، والكمال عمار بن علي الموصلي (ت:400هـ/1010م)، والعالم المشهور الحسن بن الهيثم العراقي (ت:430هـ/1040م)، وتلميذه الطبيب المصري علي بن رضوان (ت:460هـ/1070م)، الذي عينه الخليفة الحاكم رئيسًا لسائر المتطببين في دولته، ويُعد المنجم علي بن يونس (399هـ/1009م) من أكبر الفلكيين المسلمين في القرن الرابع الهجري، واشتهر بمؤلفه: (الزيج الحاكمي) (القفطي، 2005).

3.10 علوم أهل السُنّة:

ازدهرت في العصر الفاطمي الأول العلوم الدينية التي لا تصادم المذهب الإسماعيلي، مثل: القراءات، وظهرت مصنفات قيمة ألفها أئمة كبار، وظهر عددٌ من كبار الحفاظ في علم الحديث (ابن خلكان، 1972)، ولم يبرز علماء في المذاهب الفقهية السُنية؛ لتشدد الخلفاء الفاطميين ضدهم، ومحاولتهم الحقيقية لصبغ مصر بالصيغة الإسماعيلية (ابن خلكان، 1972)، وبالرغم من أن الخليفة الحاكم بأمر الله عندما أنشأ دار العلم (395هـ/1005م)، أباحها للفقهاء، فاتسمت تلك الدار بالحرية المذهبية، فلم تقتصر على فقهاء الإسماعيلية؛ بل اجتمع فيها فقهاء السُنة، وقرئت بها فضائل الصحابة؛ إلا أن الحاكم سرعان ما عاد لتعصبه المذهبي، فقتل عددًا من أئمة الحديث واللغة السنيّين، ثم شهدت مصر نوعًا من التسامح المذهبي في عهد الخليفتين: الظاهر لدين الله، والمنتصر بالله، فوفد إلى مصر في عهده الظاهر لدين الله الإمام المالكي القاضي عبدالوهاب البغدادي (ابن خلكان، 1972).

وكذلك قدم من بغداد الإمام الفقيه محمد بن أحمد بن عيسى السعدي الشافعي [عطا الله، 1989، ص87]، وبالرغم من قدوم الأئمة فإن علوم الفقه في مذاهب السنة عانت من الفتور، ولم تزدهر في العصر الفاطمي الأول (ابن الأثير، 1997)، فكانت السياسة المذهبية المتعصبة لخلفاء الفاطميين في تلك المرحلة عقبة كأداء في سبيل حرية التعليم، وسببًا في اجتهاد كثير من علماء أهل السُنة، فلم يظهر في الحقبة الأولى من العصر الفاطمي فقهاء كبار من أهل السنة (الذهبي، 1983)، ولم تصنف كتب فقهية جديدة، وقلَّت الحركة في علم الفقه في مذاهب السُنة، قياسًا بالحقبة الثانية من العصر الفاطمي (الذهبي، 1983)، ويمكن القول: إن الحركة العلمية في العصر الفاطمي سارت بخطى واسعة نحو التقدم والارتقاء.

11. الخاتمة:

من خلال البحث والدراسة تبينت للباحث النتائج الآتية:

1. كان انتقال الفاطميين إلى مصر لوجود متطلبات ومستلزمات كانت هي الأساس في استقرار خدمة ونشر المذهب الشيعي، ربما من حيث الانعكاسات الطبيعية والإستراتيجية، وربطها بالنتائج الحضارية، وكذلك مرونة وتعايش المجتمع المصري، في حين كانت تلك المستلزمات تكاد تكون غائبة عنهم في بلاد المغرب، التي كان يسودها التقشف والزهد، فبذلك لا تخدم بقاءهم ووجودهم هناك.
2. اهتم الفاطميون بالجانب التعليمي والثقافي، حيث كانوا قد عمدوا إلى تأسيس مؤسسات مهمة في هذا الجانب، وذلك لخدمة المذهب الشيعي، فقد أسسوا عدة مدارس وخزائن كتب ومجالس علمية كانت في بلاطهم، وخصوصًا أن الأزهر كان آنذاك نواة للعلم، وكان بمثابة جامعة إسلامية استمرت حتى بعد نهاية حكمهم في مصر.

3. كان الفاطميون قد حكموا مصر قرابة قرنين ونيف، ولم يبق من آثارهم الإيجابية سوى تأسيس مدينة القاهرة والجامع الأزهر، الذي أصبح نواة جامعة إسلامية فيما بعد، تمتد إلى يومنا هذا، فضلًا على بعض العادات الاحتفالية التي كانت مصاحبة لهم في المناسبات الدينية، كمولد الرسول– ﷺ–، فقد زالت هذه الدولة على يد الأيوبيين، وربما كان سبب زوال دولتهم أن سكان مصر من أهل السنة الذين لا يرضون بحكم الشيعة لهم على المدى الطويل.

المصادر والمراجع:

أولًا– المصادر:

ابن الأثير، مجد الدين. (1997). الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت.

ابن تغري، بردي. (1992). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة.

ابن خلكان، أحمد بن محمد. (1972). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت.

الذهبي، شمس الدين محمد. (1983). سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت.

الشهرستاني، محمد بن علي. (1989). الملل والنحل، مكتبة الحلبي، القاهرة.

الصفدي، خليل بن أيبك. (2000). الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوطي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

القاضي النعمان. (1969). دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام، دار المعارف، القاهرة.

القفطي، علي يوسف. (2005). إخبار العلماء بأخبار الحكماء، دار الكتب العلمية، بيروت.

القلقشندي، أبو العباس أحمد. (1919). صبح الأعشى في كتابة الإنشا، تحقيق: محمد إبراهيم، المطبعة الأميرية، القاهرة.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. (1967). اتعاظ الحنفاء لأخبار الفاطميين الخلفاء، القاهرة.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. (2009). الخطط المقريزية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة.

ثانيًا– المراجع:

الأعظمي، محمد حسن. (1993). أضواء على الفكر والتاريخ الفاطمي، دار مكتبة الأنجلو، الإسكندرية.

حسن، حسن إبراهيم. (1932). الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية، دار المعارف، القاهرة.

حسن، حسن إبراهيم. (1963). المعز لدين الله الفاطمي، مكتبة النهضة العربية، القاهرة.

حسن، زكي محمد. (1937). كنوز الفاطميين، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة.

حسين، محمد كامل. (1950). في آداب مصر الفاطمية، دار الفكر العربي، القاهرة.

سرور، محمد جمال. (1991). الدولة الفاطمية في مصر، دار الكتاب العربي، القاهرة.

سليم، أحمد أمين. (1970). ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي، القاهرة.

الصاوي، أحمد. (1983). مجاعات مصر الفاطمية، دار التضامن، بيروت.

عرفة، محمود محمود. (2003). الدولة الفاطمية في مصر، دار الثقافة العربية، القاهرة.

عطا الله، خطر أحمد. (1989). الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي، دار الفكر العربي، القاهرة.

عنان، محمد عبد الله. (1958). تاريخ الجامع الأزهر، القاهرة.

فكري، أحمد. (1969). مساجد القاهرة ومدارسها، القاهرة.

كمال، حسين علي. (1959). طائفة الإسماعيلية، مكتبة النهضة، القاهرة.

المناوي، محمد حمدي. (1970). الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، دار المعارف، القاهرة.

مشرفة، عطية. (1948). نظم الحكم في مصر الفاطميين، ط2، ج4، منشورات دار الفكر العربي، القاهرة.